

## قضية الإعجاز في بيئة المعتزلة

### The issue of miracles in the mu'tazilatisolationists environnement

عنتر قاسم\*

|                         |                          |                           |
|-------------------------|--------------------------|---------------------------|
| تاريخ النشر: 2023/05/10 | تاريخ القبول: 2022/12/08 | تاريخ الإرسال: 2021/09/10 |
|-------------------------|--------------------------|---------------------------|

الملخص:

نشأت الدراسات الإعجازية ونمت في أحضان المعتزلة، ذلك أنهم حملوا لواء الدفاع عن الوحي ثم بيان وجوه إعجاز القرآن الكريم ليبطلوا الشبهات وكيد الكائدين، ولقد تسلّحوا لأداء هذه المهمة إلى جانب قدرتهم وتمكّنهم في علم البيان- بالفصاحة والبيان العربي، والاطلاع الواسع على فنون البلاغة والفلسفة والمنطق وإيراد الحجج والبراهين، فأحسنوا استنباط الآراء وتشعيب المعاني وتفريغها.

وقد أولى المعتزلة البلاغة عناية خاصة، ووجدوا فيها وجهًا قويًا من وجوه الإعجاز، كما وافقهم بعض علماء أهل السنة والجماعة مثل الإمام "حمّد بن إبراهيم الخطابي" (ت388هـ) إذ يقول: "فحازت بلاغة القرآن من كلّ قسم من هذه الأقسام حصّة، وأخذت من كلّ نوع من هذه الأنواع شعبة، فانتنظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتيّ الفخامة والعدوبة"<sup>(1)</sup>.

وكيف لا يهتمون بهذه البلاغة وقد نزل القرآن الكريم على أرباب الفصاحة والبيان، فإذا ببلاغته تفوق قول كلّ بليغ، وفصاحته تعلو فوق كلّ فصيح، بعدما كان الشّعير عندهم بضاعتهم الرائجة، فإذا به أمام النصّ القرآنيّ يتّرحّض عن مكانته.

أما الهدف من البحث فهو محاولة كشف الغموض عن الإعجاز البلاغي في النصّ القرآني باعتبار مصدر البلاغة والعطاء المتجدّد الذي لا نهاية له.

الكلمات المفتاحية: إعجاز، معتزلة، أشاعرة، بيان، بلاغة.

#### Abstract:

*The miraculous studies arose and grew in the bosom of the Mu'tazila, because they carried the banner of defending the revelation and then*

\*جامعة الجزائر 02 / الجزائر. [Antargacem227@gmail.com](mailto:Antargacem227@gmail.com)

*explaining the faces of the miracles of the Holy Qur'an to nullify the suspicions and the plots of the masters, and they have armed themselves to perform this task - in addition to their ability and mastery in the science of statement - with eloquence and the Arabic statement, and wide access to the arts of rhetoric and philosophy And the logic and the presentation of arguments and proofs, so they developed good opinions and the bifurcation and emptying of meanings.*

*The Mu'tazilites paid special attention to rhetoric, and they found in it a strong aspect of miracles, as some scholars of the Sunnis and the community agreed with them, such as the Imam "Hamad bin Ibrahim Al-Khattabi" (d. 388 AH) when he says: "So the rhetoric of the Qur'an acquired a share from each of these sections, and it took from Each of these types is a branch, so join them by mixing these descriptions with a vault of speech that combines the two attributes of luxury and sweetness.*

*How could they not be interested in this eloquence when the Noble Qur'an was revealed to the masters of eloquence and eloquence, so if its eloquence exceeds the utterance of every eloquent, and his eloquence exceeds every eloquent, after poetry was their popular commodity, then if it is in front of the Qur'anic text it shifts from its position.*

**Key words:** Miracle, Solitary, Poetess, Rhetoric, Statement.

\*\*\* \*\*

[Antargacem227@gmail.com](mailto:Antargacem227@gmail.com) المؤلف المرسل: عنتر قاسم

مقدمة:

كانت غاية المعتزلة من إحلال المبحث البلاغي محل الوسيلة للوصول إلى مقاصد الرسالة الدينية ملحين على البيان أو الوظيفة الإلهامية، فبقي البحث يدور في نطاق التأثير في السامع مع اعتبار النص القرآني يرمي إلى الوصول إليه وإقناعه.

وإذا كانت المعتزلة قد جعلت بلاغة القرآن في الطبقة العليا من سائر البلاغات، فكذلك الحال عند بعض علماء أهل السنة والجماعة، والسؤال الذي يطرح نفسه ما هي أسس البلاغة التي قام عليها إعجاز القرآن عند المعتزلة؟ وهل نشأت قضية الإعجاز

في بيئة المعتزلة؟ وإن كان كذلك فما جهودهم في هذا الباب وما أثرهم وما دورهم في تحديد وجه الإعجاز والكشف عن اللبس الذي أحاط بتعاريف البلاغة وعلاقته بحقيقة النظم؟ ونحسب أنّ الهدف من بحثنا متعلّق بإشباع النقص المعرفي، ومحاولة كشف الغموض عن الإعجاز البلاغي في النص القرآني فهو مصدر البحث عند علماء المعتزلة والأشاعرة، ومن جهة أخرى بيان إسهامات الفرقتين وجهودهما في التأسيس لنظرية النظم التي اكتمل صرحها على يد إمام البلغاء عبد القاهر الجرجاني وكذا الاطلاع على حركة التأليف عند المعتزلة ومبادراتهم العلمية في الدراسات الإعجازية، وعن منهجية البحث لهذه الدراسة التراثية التي تتّبع جهود العلماء وإضافاتهم في بيان أوجه الإعجاز اهتديت إلى أن تكون دراسة هذا النموذج بمنهج استقرائي وآخر تاريخي من أجل معرفة آراء العلماء في البحث البلاغي المتعلّق بالنصّ القرآني.

### 1 البلاغة والبيان:

#### 1.1 بداية التأسيس للبحث البلاغي ودراسة الإعجاز:

في بداية القرن الثالث الهجري أخذ النص القرآني يتعرض لحركات الطعن والمساس به، فجند العلماء أقلامهم للدفاع عن قداسة الوحي، ومن ثم بدأت فكرة تحديد مواطن البيان في القرآن الكريم ومكامن بلوغه حدا من الفصاحة التي لم تعتدها العرب قبل، وإذا كانت البلاغة قد جاءت لخدمة بيان القرآن ومحاولة فهم إعجازه والوقوف عليه، فإن تحليل الوجوه وكشف أسرارها ناتج عن علم البلاغة، إذ يعد أبرز وسيلة لإظهار هذا الإعجاز إظهارا يستحضره المحلل البلاغي ويقدمه بين أيدينا، فالبلاغة هي الواقع الحقيقي الذي يجب أن يتحقق في درس الإعجاز لاستخراج مكامن ومطامح الجمال المتمثلة في الألفاظ والمعاني والأسلوب والتأليف، فضلا عن ذلك فقد تعمق سؤال البلاغة في بيئة الإعجازيين التي كان همها بيان وجوه إعجاز النص القرآني، كما تبلور بعدها الوظيفي انطلاقا من هذا النص خادمة له ومُيسِّرة فهمه، مبينة إعجازه،

فدراسة أسلوب القرآن يعتمد على البلاغة، والبلاغة تعتمد إلى الشاهد القرآني لتستعين به في توضيح الظواهر اللغوية وتفسيرها وتثبيتها في الذهن لتبين أوجه هذا الإعجاز، ووفقاً لكل هذا يمكننا القول أن البلاغة العربية سَخَّرت ذاتها وذلَّت علومها لدراسة الإعجاز القرآني، هذا التسخير هو سبب نضجها وتطورها، إذ أن معظم الدراسات البلاغية التي كانت ذات أثر في بلورة مفهوم البلاغة وصياغة نظرياتها إنما هي من الدراسات التي نمت في كنف الإعجاز أو الطريق إليه، وحركات التأليف في جو البيان وُلدت في أحضان النص القرآني ونشأت فيه وأيفعت وأنجبت لنا تراثاً بلاغياً خصبا صار قبلة لكل قاصد وبُغية لكل رائد.

ثم إنَّ أعلام المعتزلة والأشاعرة أجمعوا على أنَّ للبلاغة وظيفة أسمى هي الإبانة والإفهام والقرآن الكريم كلُّه إفهام وبيان كما قال الجاحظ: "على قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختيار ودقَّة المدخل يكون إظهار المعنى، وكلِّما كانت الدلالة أوضح وأفصح كانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع".<sup>(2)</sup>

والكلام يتفاضل بين المتلقين بما يحققه من إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ بعيداً عن التعقيد والتكلف، والجميل والجدير بالذكر في لغة القرآن أنَّه "يُتَخَيَّرُ له أشرف المواد، ويضع كلَّ مثقال ذرَّة في موضعها الذي هو أحقُّ بها وهي أحقُّ به بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلَّا مرآته النَّاصِعة وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلَّا وطنه الأمين، وقراه المكين".<sup>(3)</sup>

ويتوافق هذا التحليل مع تعريف أبي الحسن عيسى الرَّمَانِي للبيان في قوله: "هو الإحضار لما يظهر بهتمُّز الشيء عن غيره في الإدراك"،<sup>(4)</sup> وهذا يعني أنَّ التميَّز هو جوهر دلالة البيان، لذا يجب التخلُّص من كلِّ شيء يعوق وصول المعنى الحقيقي إلى متلقيه، فجعل الرَّمَانِي الإصابة في الدليل وحسن الأداء لازمة تلازم البيان، وفي هذا يقول: "حسن

الإفهام إنّما يكون بحسن الإبانة وحسن الإبانة يعني توجّي أفضل وأحسن الوسائل وأوضحها وأكثرها استيعاباً لأحوال المعاني وأهواء النفس<sup>(5)</sup>.

فالبيان في جوهره هو معان تُؤدّي، تكون الألفاظ لأجلها، أو ليست البلاغة الأداء الأحسن للمعاني؟ يقول الجاحظ: "البيان اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يُفضي السّامع إلى حقيقته... والغاية التي يجري إليها القائل والسّامع إنّما الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"<sup>(6)</sup>، وفي هذا المقام يهتمّ الجاحظ بأمرين: أولهما فهم المتكلّم قبل أن يتكلّم، وثانيهما الاقتدار على إفهام السامع.

ولكي تُثمر وظيفة البلاغة في الإبانة والإفهام لابدّ من حسن الأداء والإيضاح، وهذا الذي كان يرمي إليه الرّمانيّ لتحقيق البلاغة التي يقصد بها "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"<sup>(7)</sup>.

فالإبانة عند الرّمانيّ تكمن في إيصال المعنى إلى القلب، وحسن الأداء والصّيغة يكمن في حُسن صورة اللفظ، وهذا غاية البلاغة الجماليّة كما أشار ابن جنيّ "أنّ العرب لم تعتن بألفاظها إلّا لأجل معانيها فعلى قدر حفاوتها بمعانيها تكون عنايتها بألفاظها، ولجمال أحمد العمريّ رأياً يرى فيه أنّ الرّمانيّ بتحديدده لمعنا البلاغة يبعث من جديد قضية اللفظ والمعنى في عصر الجاحظ من زاوية محصورة في أنّ الإبداع يحصل في اللفظ، وتتفاضل الناس في المهارة، لذلك وجدنا المعتزلة قد أولت الألفاظ عناية خاصّة، ولا يعني هذا إهمال المعاني أبداً، يقول ابن جنيّ "فأولّ ذلك عنايتها بألفاظها فإنّها لما كانت عنوان معانيها وطريقاً إلى إظهار أغراضها ومراميها أصلحها وربّوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع لها في السّمع وأذهب بها في الدّلالة على المقصد"<sup>(8)</sup>.

يصل بنا هذا الحديث إلى أنّ انتقاء اللفظ الشّريف يدل على المعنى الشّريف وصدق العمريّ في قوله: "والعبرة في الأخير تكمن في إقامة الوزن وصحة الطّبع وجودة

السَّبَك" (9)، إذ أنَّ المعاني هي أساس البيان، وعلمها مداره، ومن خالف وأخفق فقد شوّه صورة البيان، وهذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني في بناء نظرية النّظم حين عوّل على المعاني قائلا: "وإنّك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنّها خدم للمعاني وتابعة لها، وإنّ العلم بمواقع المعاني في النّفس، علم بمواقع الألفاظ الدّالة عليها في النّطق" (10)، لذلك أعطت المعتزلة الأداء أهميّة بالغة في تحديد بلاغة الكلام، واهتمت كذلك بالصياغة التي كانت داعمة لقضيّة الإعجاز القرآني حتى صار أساسا من الأسس البلاغيّة في الدّراسات الإعجازيّة.

وإذا كان حسن الأداء أحد الأسس التي يظهر بها إعجاز القرآن، فالإمتاع والتأثير هما المقياسان اللذان يقاس به حسن الأداء، وهذه هي المعايير الجمالية التي تميّزها كلام الله دون كلام البشر، ذلك الالتئام التام بين اللفظ وما يحمله من معنى، أو الصّورة التي تحدّث في المعنى، ولا نعني بها الصور البيانيّة من تشبيه واستعارة، بل هي كلّ الطاقات التعبيرية التي تفرّق بين بيان وبيان، وما يميّز بيانا من بيان لقول الجاحظ: "إنّما الشّعْر صياغة وضرب من التصوير" (11).

ويمكن أن نرجع فضل المعتزلة في فهم طبيعة البلاغة القرآنية إلى أصولهم العقديّة وقناعاتهم المذهبيّة المتمثّلة في التّوحيد وما تفرّع عنه من مبحث بلاغيّ غاية في الأهمية والأثر "المجاز اللّغويّ" ودوره في التّأويل، فصارت البلاغة انتصارا وخدمة للمعتقد أوّلا، ثمّ خدمة للبلاغة والإعجاز.

أمّا قناعتهم الثّانية الماثلة في العدل فقد تفرّع عنها مبحث التّكليف، حيث ربط المعتزلة بين الإعجاز وأصل العدل، فالله تحدّى العرب بالقرآن ولغته، فإنّه من العدل أن يكون النّاس قادرين على الإتيان بمثله دون سلب علومهم وقدراتهم، ولو كلّفهم الله

بما لا يُقدر عليه لكان مخالفا لأصل العدل، والله عزّ وجل لم يسلب علومهم وقدراتهم، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بآية من مثله.

ثمّ إنّ تركيز المعتزلة على النصّ القرآنيّ بدأ من قضية عقديّة، تستوقف الدّارس للدّفاع عن عقيدته بالحجج ورد الشّهات وحركات الطّعن، ليتحوّل إلى إبراز أوجه الإعجاز وتعليلها لفهم هذا النصّ وطرق تركيبه وكلامه ونسجه، وكيف صارت البلاغة وجها قوياّ من وجوه الإعجاز عند المعتزلة وأهل السنّة؟ ولا يعني تأخير النصّ الشّعريّ إهمالا للموروث العربيّ، وإنّما متطلّبات العصر والمرحلة الحرجة في عمر الأُمّة، والمساس بقديسيّة الوحي قدّمت النصّ القرآنيّ في الدّراسات على الشّعور وإن حضر فهو شاهد لعربيّة القرآن وبلاغته وإعجازه.

### 2 جهود المعتزلة في الدّراسات الإعجازيّة والبلاغة العربيّة:

#### 1-2 المعتزلة والإعجاز:

نبدأ بالجاحظ، نظرا لدوره الكبير والهام، ومكانته في تاريخ التّأليف البلاغيّ، إذ تعتبر مؤلفاته بمثابة الدّائرة التي حفظت لنا أطوار العلم الأولى وفتحت السّبيل إليها، كما حملت ملامح ما تلاها وتولّد عنها من غزارة المادّة البلاغيّة واللّغويّة، ومن ثمّ قامت هذه المؤلفات بوظيفتين: استقطاب ما سبق وتمثّله، ثمّ الزّيادة عليه ونشره ليستفيد منه اللاحق ويبني عليه السّابق، وقد قال أبو هلال العسكريّ في كتابه الصّناعتين عن الجاحظ وإبداعه "وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتّبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمرى كبير الفوائد، جمّ المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللّطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة وما حواه من أسماء الخطباء وما نبّه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من الفنون الممتازة ونُعوتها المستحسنة"<sup>(12)</sup>، وهذا دليل على علو كعبه في البيان العربيّ، وثقافته الواسعة في كل الميادين المعرفية، ويقول عنه ابن خلدون: "ولقد سمعنا من شيوخنا في مجالس التّعليم

أنَّ أصول هذا الفن-علم الأدب- أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرّد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي عليّ القالي البغداديّ، وسوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها<sup>(13)</sup>، فكُتِبَ الجاحظ لا تخلو رغم كثرتها من الحديث عن القرآن الكريم، فتارة يخبرنا عن صحة أخباره، وتارة عن سبكه ونظمه، وثالثة عن قوّة حجّته، وأخرى عن دحض الشّبهات، وهذه الشّذرات مبثوثة في كتبه، وهو أوّل من أفرد الإعجاز القرآنيّ بمؤلّف مستقلّ سمّاه "نظم القرآن"، وإن كان قد سقط من يد الزّمن ولم يصل إلينا، إلّا أنّنا عرفناه من مؤلّفات أخرى.

وتأليفه لهذا الكتاب بمثابة الردّ على شيخه النّظام إذ يقول: "أجهدتّ فيه نفسي، وبلغت فيه أقصى ما يُمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، وللدّ على الطّعان، فلم أدع فيه مسألة لرافضيّ ولا لحديثيّ، أو لحشويّ ولا لكافر مناد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النّظام ولن نجم بعد النّظام ممّن يزعم أنّ القرآن حقّ وليس تأليفه حجة، وإنّه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة"<sup>(14)</sup>، ومن أهمّ ما التفت إليه الجاحظ بلاغة القرآن، وبراعة النّظم، فالتنزيل أولى اللفظ عناية فاختره المولى بدقّة ليدلّ على المعنى بدقّة، ونزل اللفظ منزلته في الموضع الذي أريد له، لتكون اللفظة جامعة دالة على المراد أبلغ دلالة وأتمّها كما صرح الجاحظ بإعجاز القرآن قائلاً: "وإنّه فاق بذلك جميع حجج الأنبياء لتفوّق العرب في الأفهام، ولقد تحدّاهم القرآن ولم يقدروا على الإتيان بمثله عجزاً منهم لا وهناً ولا تهاوناً ولا تغافلاً، ولأنّ يدفع عنهم التّقريع بالعجز الذي هو أشدّ على نفوس العرب لما فيه من الأنفة والعزّة، وخاصة في أخصّ خصائصهم وهو البيان الذي عُرفوا به"<sup>(15)</sup>.

ولطالما اقتنع الجاحظ أنّ إعجاز القرآن يكمن في لفظه وتأليفه، لم يأل جهداً في هذا السّبيل كلّما دعاه المقام للحديث عن عجب النّظم فيقول: "...وكيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور، وكيف صار نظمته من أعظم البراهين، وتأليفه من

أكبر الحجج<sup>(16)</sup>، ولعل ما دعاه للحديث عن نظم القرآن تلك البلابل التي أثّرت حوله خاصة عندما وجده الناس منسجما على طريقة خاصة، واسترسلت آياته في وحدات مرتبطة، حسبوه من وهمهم شعرا أو سجعا، وقد حسم القرآن الأمر في قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ 40 وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ 41 وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ 42 تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فأساس نظرية إعجاز القرآن عند الجاحظ، وعمود القول فيها البلاغة من حيث ألفاظه المختارة، ونظمه ورصفه الذي يقوم على الإبداع في فنون بلاغية كالإيجاز، والمجاز، والتشبيه، والنظم المتمثلة في جودة اللفظة وحسنها وبهائها، ورقمتها وعذوبتها وخفتها وسهولتها، كما كان شديد الحرص على الأسلوب بالمعنى الأوسع من رصف الألفاظ، ولهذا باين القرآن في أسلوبه أساليب العرب في الشعر والنثر لما حواه من جمال الرصف وحسن السبك.

وتتواصل لطائف المعتزلة في قضية الإعجاز، ويفجر الرماني ينابيع علمه في رسالته التكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، وهي رسالة إعجازية أدبية بلاغية قيّمة، من أولى المصنفات التي وصلتنا كاملة، كما أنّها تعتبر "أول رسالة فنية ذات وحدة متماسكة فتحت الباب بعد ذلك لدراسات أوسع وأشمل وأعمق"<sup>(17)</sup>، حيث يرى أنّ البلاغة أحد وجوه الإعجاز، فاهتم بها لأتمّها -حسب رأيه- ليست مقصورة على الأثر التفعي المتمثل في إفهام المعنى وإيصاله للمُخاطَب، لأنّ الوظيفة التفعيية يتقاطع فيها سائر الكلام، وإنّما البلاغة التي قصدها الرماني "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"<sup>(18)</sup>، والمقصود هنا الأثر الجمالي للبلاغة الذي يهزّ النفس ويبعثها على تذوق البيان وجمالياته.

إلا أنّ الرماني لم يُسهب في نظرية النظم، ولكنه لمَح إليها في ظلال الفنون التي ذكرها وهي ذات صلة بنظم القرآن والمتمثلة في حسن البيان وحسن وقع اللفظة على

السَّمْع، وخَفَّتْهَا على اللِّسَان، وحسن تَقْبُلُهَا، وأن يكون المقال على قدر المقام، وهذا جديد الرِّمَانِي، حيث حدّد فنون البلاغة، ورسم أقسامها، وأشار إلى شروط علو البيان الذي جعل القرآن معجَزًا ببلاغته.

ومن الرِّمَانِي إلى القاضي عبد الجبَّار المعتزليّ (ت415هـ) إذ يُعتبر ما كتبه امتداداً لما كتبه الباقلانيّ (الأشعريّ المعتقد) في الإعجاز نظراً لمعاصرته، إلّا أنّ عبد الجبار لا يميل إلى اعتبار الإعجاز في أوجه البلاغة وفنونها، وإنّما في الساحة التي تقوم على جودة اللفظ وحسن المعنى، شأنه شأن الجاحظ والرِّمَانِي، فالمعولّ عليه هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

وبهذا يكون القاضي عبد الجبَّار المعتزليّ قد أشار إلى أنّ الفصاحة ليست تلك التي استقرّ عليها بعض علماء البلاغة والتي تكون وصفاً للكلمة أو الكلام بخلوّه من الثقل والغربة وقواعد اللّغة، وإنّما الفصاحة نظم الكلمات بعضها مع بعض، وهي ملاحظة قيّمة في إبراز نظرية النّظم فالكلام بجزالة لفظه وحسن معناه، ويمضي القاضي عبد الجبَّار شارحاً معنى الفصاحة والمزيّة فيها في الجزء السّادس عشر من كتابه المُغْنِي في أبواب العدل والتوحيد أنّ الفصاحة لا تظهر في اللفظة الواحدة، وإنّما تظهر عند ضمّ الكلمات بعضها لبعض ليقع التناسب والتّجانس مؤدّياً الوظيفة الإفهامية ومحقّقاً للوظيفة الجمالية في الوقت ذاته، لأنّ موقع اللفظة يتحدّد من حيث دورها في التّعبير عن المراد وفي هذا يقول: "والفصاحة لا تظهر في الكلمات المفردة، وإنّما بضمّ هذه الكلمات بعضها إلى بعض"<sup>(19)</sup>، وتظهر الفصاحة بثلاث جهات حسب رأي القاضي عبد الجبَّار، والمتمثّلة في:

أولاً: اختيار الكلمة، لأنّ الكلمة التي تصلح في موضع قد لا تصلح في موضع آخر.

ثانياً: حركة الكلمة من حيث الإعراب.

ثالثا: موقع الكلمة تقديمًا أو تأخيرًا إلى غيرها من الأساليب، لأنَّ تغيُّر الموقع يتغيَّر به المعنى ويتبدَّل، ويشرح لنا شوقي ضيف هذه العناصر حيث يرى أنَّ الكلمة لا يُمكن أن تُفهم إلَّا في إطار موقعها العام في الكلام، والوظيفة التي تُؤدِّيها، وقد تُفهم المعاني وتتحد المفردات ثمَّ يقع التَّباين في مدى الفصاحة والبيان والإفهام.

ولقد ردَّ عبد الجبَّار المعتزليَّ الإعجاز إلى الفصاحة ووسَّع دلالتها لتساوي فكرة النِّظم يقول بسيوني عرفة: "والحقَّ أنَّ حديث عبد الجبَّار المعتزليَّ قد بلغ من العمق والتركيز ووضوح الأساس في الفكرة ما لم يصل إليه غيره ممَّن سبقه، حتى إنَّنا نستطيع أن نقول إنَّ حديث عبد الجبَّار عن النِّظم يُعدُّ بمثابة الأساس السليم لهذه النِّظريَّة التي دَعَمها وشرحها فيما بعد عبد القاهر الجرجاني، ونالت على يديه الدِّيوع"<sup>(20)</sup>.

نستنتج من تحليل بسيوني عرفة أنَّ عبد الجبَّار كان الهادي لعبد القاهر وتلك البداية التي أخذ منها فكرة النِّظم التي تقوم على توخي معاني النحو، والهادي لهما هو الخطَّاب السَّيِّ فيقول شارحا ثلاثيته في تحديد نظرية النظم: "لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم"<sup>(21)</sup>، مجملا عناصر البلاغة المشكَّلة للكلام.

لقد نفى عبد الجبَّار أن يكون مرجع الفصاحة التي يُفسَّر بها إعجاز القرآن إلى اللَّفظ والمعنى والصُّور البيانيَّة فقط، وإنَّما مرجعها إلى الأسلوب والأداء والصيغة النِّحويَّة للتعبير أيضًا، فإذا اجتمعت هذه العناصر كان الكلام فصيحًا.

وفي نهاية القرن السَّابع الهجري، جاء أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ) ليُدلي بدلوه في الدِّراسات الإعجازيَّة، إذ يُعتبر أوَّل من أخرج الإعجاز البياني من حيِّز النِّظريَّة إلى ميدان التَّطبيق، فيُعدُّ "الكشَّاف" أوَّل كتاب في التفسير كشف لنا سرَّ بلاغة القرآن وأبان لنا عن وجوه إعجازه ودقَّة المعنى الذي يُفهم من التَّركيب اللَّفْظي، كلُّ هذا في قالب أدبيٍّ رائع، وصوغ إنشائيٍّ بديع لا يتفق لغير الزمخشريِّ إمام المفسِّرين

وسلطانهم، يقول شوقي ضيف: "كأنما تجمّعت في صدره جميع أُماني المعتزلة والأشاعرة في تصوير بلاغة القرآن المعجزة"<sup>(22)</sup>.

يرى الزّمخشري أنّ الوجه المعجز في القرآن الكريم يكمن في نظمه مثله مثلاً لجاحظ، والخطّابي، والباقلاني، والجرجاني، وقد عبّر في مقدّمة كتابه "الكشّاف" عن أهميّة علم المعاني والبيان في مسألة النّظم قائلاً: "...وهذا العلم-علم التّفسير-لا يستجيب إلّا لمن أُوتي حظّاً كبيراً من علميّ المعاني والبيان مع فطرة سليمة، وبصيرة نافذة ونفس يقظة، ومضّان الإعجاز في القرآن ما ضُمّ عليه نظمه من دقيق المعاني ولطيفها، وما تحمل ألفاظه من أسرار مُحجبة لا تُرى إلّا لمن أُوتي حظّاً من ذوق الكلام وفهم مرامي البيان"<sup>(23)</sup>.

ولقد تتبّع الزّمخشري الطرق التي يستخدمها الأديب في صياغة آثاره الأدبيّة فوجدها متمثّلة في التشبيه والمجاز والكناية (علم البيان) والفنون الجميلة التي تُجلي أسرار الجمال ومواطنه، وهذا ما طبّقه في كشّافه فاهتمّ بالمجاز وهو الباب الذي نال حظاً كبيراً في الدرس البلاغي من أبواب البيان عند البلاغيّين درجة رفيعة، فبدا ملماً متمكّناً من هذا الفنّ الفريد.

#### خاتمة:

استطاع المتكلّمون المعتزلة إلى جانب الأشاعرة فيما بعد بناء صرح هائل في الفكر البلاغيّ برغم العطاء الهائل من الأدباء واللغويين والفقهاء كلّ في ميدانه، بيد أنّ عطاء المتكلّمين كان أشدّ، وصوتهم كان أعلى حين تكلموا في مسائلهم الفلسفيّة المدافعة عن العقيدة، ومن المسائل التي شغلّتهم لاتّصالها بأصل العقيدة الإسلاميّة مسألة إعجاز القرآن فدافع المتكلّمون عن كلّ هذا بتمكّينهم من العلوم اللّغويّة، وثقافتهم الواسعة وتذوّق أسرار البيان ومكانه.

لقد قدّم المتكلمون للقرآن أجمل ما يُمكن، وللبلاغة أعظم ما يفيد، وكلّهم أظهرُوا من أسرار القرآن ما أذهل وأدهش، وجعلُوا المُعْتَرِض يُفْهِم، ولله درّهم فيما شغلُوا به أنفسهم، وعلى رأي أحمد أمين بقتل المعتزلة واضطهادهم كُتِلَ العقل بعض الشيء وتعطّلت آلة التجديد الفكريّ يقول أحمد أمين باكية المعتزلة: "...هذا ما ساد عقول كثير من المسلمين منذ خُنق الإعتزال... وأكرم العالم المُقلِّد أكثر ممّا أكرم المجتهد" (24).

إنّ العلم رحم بين أهله وكلّ المدارس السنيّة والأشعريّة والإعتزاليّة خدمت أشرف الكتب السّماويّة، إلّا أنّ درس الإعجاز بدأ من المعتزلة إلى الأشاعرة، "ثم إلى المعتزلة عاد على يد الزمخشري" (25)، خلاصة الفكر البلاغيّ في مدرسة المتكلمين، ويمكن حصر أهمّ النتائج في:

— بعدُ العلماء عن التعصّب وقبولهم الآخر وفكره أثر تراثاً علمياً بلاغيّاً خدم النصّ القرآنيّ وأسهم في رقيّ الفكر وتلاقح العقول بالرغم من اختلاف المشارب والمذاهب والنحل.

— نمت البلاغة وترعرعت علومها في أحضان النصّ القرآنيّ.

— لقد كان لإعجاز النصّ القرآنيّ أثراً واضحاً في الفكر العربيّ، فقد جمع في ميادين البحث المتكلمين والمفسّرين والبلاغيين واللّغويين والأدباء والنقّاد في فلك واحد ليستخلصوا من القرآن مقاييس الجمال وبراعة القول وفنون البلاغة والفصاحة والبيان.

وأهمّ ما يمكننا القول أنّ الدّراسات الإعجازيّة ليست حكراً على زمن معيّن، ولا على طائفة دون سواها، لذا وجب مواصلة رحلة البحث والتنقيب في هذا المجال الذي لا يشبع منه العلماء (الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم) ولا تنقضي عجائبه باعتباره أهمّ الوجوه باتّفاق معظم العلماء والدّارسين.

\*\*\* \*\*

## الهوامش:

- <sup>1</sup> حنّد بن إبراهيم بن سليمان الخطّابي، بيان إعجاز القرآن، مطبوع ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تح: محمد خلف الله أحمد، ومحمد سلام زغلول، دار المعارف، ط3، مصر، دت، ص26.
- <sup>2</sup> أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3، مصر، 1975، ج1، ص11.
- <sup>3</sup> محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار طيبة، ط1، السعودية، 1997، ص15.
- <sup>4</sup> علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، ط3، مصر، دت، ص107.
- <sup>5</sup> المصدر نفسه، ص97.
- <sup>6</sup> أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص84.
- <sup>7</sup> علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص69.
- <sup>8</sup> أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، الهيئة العامة للكتاب، ط4، مصر، 1999، ج1، ص216-217.
- <sup>9</sup> أحمد جمال العمري، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري، مكتبة الخانجي، دط، مصر، 1990، ص115.
- <sup>10</sup> أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ط5، مصر، 2004، ص54.
- <sup>11</sup> المصدر نفسه، ص54.
- <sup>12</sup> أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، الصناعاتين: الكتابة والشعر، تح: علي البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2، مصر، 1975، ص10-11.
- <sup>13</sup> عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تح: يحي مراد، مؤسسة المختارة للنشر، ط1، مصر، 2008، ص745.
- <sup>14</sup> أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، حجج النبوة، تح: محمد عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، 2000، ص141.
- <sup>15</sup> المصدر نفسه، ص141.
- <sup>16</sup> صلاح الدين محمد عبد التّوّاب، دراسات أدبية ونقدية حول إعجاز القرآن، دار الكتاب الحديث، دط، لبنان، 2003، ج1، ص29.
- <sup>17</sup> فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، منشأة المعارف، ط3، مصر، 1983، ص122.
- <sup>18</sup> علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص75.
- <sup>19</sup> القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب العدل والتوحيد، أمين الخولي، وزارة الثقافة والإرشاد، دط، مصر، 1960، ج16، ص199.
- <sup>20</sup> بسيوني عرفة، فكرة النظم في تطورها وأهدافها، دار الرسالة، ط1، 1982، ص55.
- <sup>21</sup> حمد بن إبراهيم بن سليمان الخطّابي، بيان إعجاز القرآن، ص28.

- <sup>22</sup> شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، دار المعارف، ط9، مصر، 1995، ص 222.
- <sup>23</sup> محمود بن عمر الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي معوض، مكتبة العبيكان، ط1، السعودية، 1989، ج1، ص 96.
- <sup>24</sup> أحمد أمين، ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، ط10، لبنان، دت، ج1، ص 40.
- <sup>25</sup> منير سلطان، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، منشأة المعارف، ط3، مصر، 1984، ص 124.